روايات تأسيس مدينة القيروان بين الحقيقة و الأسطورة
يوم دراسي: حواضر المدن بالمغرب الإسلامي (1-7هـ/9-15م)

طارق بن زاوي
أستاذ محاضر أ
جامعة محمد بوضياف المسيلة

تعتبر بلاد المغرب الإسلامي من المناطق التي استمرت فيها عمليات الفتح الإسلامي لعقود طويلة خلال القرن الأول الهجري ، و تعاقب على قيادة هذه الفتوحات قادة عسكريون أكفاء ، و كانت الحرب فيها سجالا بين المسلمين من جهة و الروم و البربر من جهة أخرى ، و قد أدرك المسلمون أهمية بناء قاعدة لهم في هذه المنطقة ، فاهتدى عقبة بن نافع الفهري أحد أشهر القادة الفاتحين لبلاد المغرب إلى تأسيس مدينة القيروان التي ستصبح عاصمة المغرب كله ، و قد حملت كتب التاريخ روايات كثيرة حول تأسيس هذه المدينة و فضل مؤسسها عقبة ، و تناقلها كثير من المؤرخين القدامى منهم و المحدثين دون تمحيص أو نقد لمحتواها ، و في هذه الأسطر سأحاول التطرّق إلى إشكالية مهمة في تاريخنا الإسلامي و المتمثلة في مدى بعد كثير من هذه الروايات عن الحقيقة و اقترابها من الأسطورة و الخرافة , ، و الكلام عنها (الروايات التاريخية) لا يكون علميا و موضوعيا إلا بالإحتكام إلى العقل السليم و المنطق المعتدل و الفكر المتزن ، و هذا المقال سعي للنظر بإمعان في تراثنا التاريخي نظرة المؤرخ الناقد لا رواية المؤرخ الناقل .

1- تعظيم بعض المغاربة لمدينة القيروان :

لقد بدأت تطغى فكرة إيجاد مصر إسلامي في إفريقية يكون مستقرا للجيش الإسلامي و قاعدة ارتكاز له ينطلق منها لتحقيق أهدافه بدون أن تكون المسافات الشاسعة قد استنفذت جهده و أضعفت من قوته ، و إذا كانت فكرة إيجاد مدينة و معسكر ليستقر فيه المسلمون قد ابتدأها معاوية بن حديج ، إلا أنّ الذي تولى تنفيذ فكرة تأسيس هذه المدينة و إعطائها طابعها الحقيقي فإنّما هو عقبة بن نافع [1] ، و بتأسيسها بدأت مرحلة جديدة في سير عمليات الفتح الإسلامي ، مرحلة سيعرف فيها العرب بداية استقرارهم الفعلي في هذه المنطقة ، و لأهمية القيروان و مكانتها في نفوس المسلمين فقد بالغ بعض المغاربة في تعظيمها مبالغة كبيرة ، و جعلوها حرما مقدسا رابعا بعد مكة و المدينة و بيت المقدس ، و دليلهم في ذلك أخبار منسوبة لبعض الصالحين من الفقهاء ، و منها

ما جاء في معالم الإيمان عن فضل هذه المدينة ما نصه : " دار هجرة المغرب و التربة المقدسة التي ضمّت شعر المصطفى فأصبحت قسيمة يثرب ، و قد كان الشيخ الصالح الفقيه أبو مهدي عيسى الصميلي بن مرزوق يقول : ما زلت أبحث في الآثار إلى أن وجدت أنّ القيروان رابعة الثلاثة المدينة و مكة و بيت المقدس" [2].

و قال أبو بكر بن أحمد بن مروان المالكي أنّه لا يعلم أنّ شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بموضع إلا بالقيروان ، و ذلك أنّ رسول الله لما حلق رأسه في حجة الوداع أخذ من شعره أبو زمعة البلوي[3] و جعله في قلنسوته فلما مات بالقيروان دفن بها معه ، فهذه مزية لأهل القيروان عظيمة و منفعة جليلة لا يشاركهم فيها غيرهم من بلاد المغرب ، حيث ضمّت أرضهم بعض جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] .

و قد كثر بين المسلمين ادّعاء بعضهم وجود شعرات للنبي صلى الله عليه وسلم عندهم ، و قد تتبع أخبارها و أماكن وجودها نقلا عن مدّعي هذه الأخبار صاحب كتاب الآثار النبوية أحمد تيمور ، و بعد أن ذكر أخبار التبرك بشعرات الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل أصحابه رضي الله عنهم قال : " فما صح من الشعرات التي تداولها الناس بعد ذلك فإنما وصل إليهم مما قسم بين الأصحاب رضي الله عنهم، غير أن الصعوبة في معرفة صحيحها من زائفها "[5] .

2– رواية تأسيس عقبة القيروان :

لقد نقل كثير من المؤرخين رواية تأسيس عقبة بن نافع مدينة القيروان ، و هي روايات تتشابه ألفاظها و محتواها إلى حد كبير ، و قد رأيت أنّ رواية ابن عذارى في بيانه هي أكثرها تفصيلا ، فلا بأس بإيرادها كما جاءت حيث يقول ما نصه : " وصل عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها ودخلها ووضع السيف في أهلها فأفنى من بها من النصارى ثم قال : إنّ إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك و أن يكون أهلها مرابطين و قالوا : نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد و الرباط ، فقال عقبة : إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها و لكن اجعلوا بينها و بين البحر ما لا يدركه صاحب البحر إلا و قد علم به ، و إذا كان بينها و بين البحر ما يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون ، فلما اتفق رأيهم على ذلك قال : قربوها من السبخة فإن دوابكم الإبل و هي التي تحمل أثقالكم فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو و الجهاد حتى يفتتح الله لنا منها الأول فالأول ، و تكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها آمنة من عادية البربر و النصارى ، و في سنة 51 شرع عقبة – رضي الله عنه – في ابتداء بناء مدينة القيروان ، و أجابه العرب إلى ذلك ثم قالوا : إنك أمرتنا ببناء في شعار و غياض لا تـــــرام و نحن نخاف من السباع و الحيات و غير ذلك ، و كان في عسكره ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و سائرهم من التابعين ، فدعا الله سبحانه و أصحابه يؤمنون على دعائه ، و مضى إلى السبخة و واديها و نادى : أيتها الحيات و السباع نحن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فارحلوا عنا فإنا نازلون و من وجدناه بعد هذا قتلناه ، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر معجب من أنّ السباع تخرج من الشعرى

و هي تحمل أشبالها سمعاً و طاعة و الذئب يحمل جروه و الحية تحمل أولادها ، و نادى في الناس : كفوا عنهم حتى يرحلوا عنها ، فلما خرج ما فيها من الوحش و السباع و الهوام و الناس ينظرون إليها حتى أوجعهم حر الشمس ، فلما لم يروا منها شيئاً دخلوا فأمرهم أن يقطعوا الشجر فأقام أهل أفريقية بعد ذلك أربعين عاما لا يرون فيها حياً أو عقرباً و لا سبعاً[6].

ورواية الدباغ في المعالم هي نفس الرواية السابقة، غير أنّها أضافت أن عقبة أمهل من في الوادي من الحيوانات ثلاثة أيام للخروج و الفرار ، فقد نقل الدباغ عن عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة أنّ عقبة بن نافع وقف على وادي القيروان و قال : يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون و إنّا من وجدناه قتلناه ، قال الراوي : فرأينا الحيات تخرجن من جحرهن هوارب حتى أوجعهن حر الشمس ، فلمّا لم يروا شيئا منها نزلوا الوادي ، قلت : ذكره غيره بأبسط من هذا ، و هو أنّ السبع يخرج إليهم من الغيظة يحمل أشباله و الذئب يحمل أجراءه و الحية تحمل أولادها و العقارب تدِبُّ دبيبا هاربة سمعا و طاعة لرب العالمين ، و نادى عقبة في عسكره كفوا عنهم حتى يرحلوا عنا ، فأقام عقبة ثلاثة أيام ينادي بأعلى صوته : يا أهل الوادي قد أجلنا لكم ثلاثة أيام ، قال فما رأوا منها شيئا في ذلك الموضع أربعين سنة و لو التمست حية أو عقرب بألف دينار فما توجد[7].

وقال أبو بكر المالكي : " فمال عقبة إلى بناء المدينة على ساحل واديها ، فقال : شأنكم ، فقالوا : إنّك أمرتنا بالبناء في شعار و غياض لا ترام ، و نحن نخاف من السباع و الحيات و غير ذلك من دواب الأرض ، و كان في عسكره خمسة عشر رجلا من أصحاب رسول الله و سائر ذلك تابعون ، قال : فبلغني أنّه دعا الله عزّ و جلّ و أصحابه يؤَمِنون على دعائه ، ثمّ مضى حتى بلغ الوادي فنادى أيتها السباع ارحلوا فإنا أصحاب رسول الله ، فنظر الناس ذلك اليوم إلى أمر عظيم ، نظروا إلى السباع تخرج إليهم من الشعراء تحمل أشبالها و الذئب يحمل أجراءه و الحية تحمل أولادها سمعا و طاعة ، ثمّ نادى عقبة في الناس كفوا عنهم حتى يرتحلوا ، فلمّا خرج من بها من الوحوش و الهوام بإذن الله تعالى ، أمرهم أن يقتطعوا و يختطوا دار الإمارة[8].

و تعتبر رواية ابن عبد الحكم و هو مؤرخ مصري متقدم (ت 257هـ) أقدم من روايات المغاربة السابقين ، و هي لا تختلف عنها كثيرا ، بل تكاد تكون مطابقة لما قبلها ، و ذكر ابن عبد الحكم أنّ عقبة غزا إفريقية فأتى وادي القيروان ، فبات عليه هو و أصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال : يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون ، قال ذلك ثلاث مرات ، فجعلت الحيات تنساب و العقارب و غيرها مما يعرف من الدواب ، تخرج ذاهبة و هم قيام ينظرون إليها من حيث أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس و حتى لم يروا منها شيئا ، فنزلوا الوادي عند ذلك ، حتى إنّ أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ، و لو التمست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت[9] .

3- روايات القبلة :

تذكر المصادر التاريخية أن المسلمين في القيروان قد اختلفوا في تحديد اتجاه القبلة بعد أن بنوا المسجد الأعظم في المدينة ، و لا بأس من إيراد هذه الروايات كما جاءت ، فقد روى ابن عذارى أنّ عقبة اختط أولا دار الإمارة ، ثم

أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطه و لم يحدث فيها بناء فكان يصلي فيه و هو كذلك ، فاختلف عليه الناس في القبلة و قالوا : إنّ جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها ، فأقاموا أياما ينظرون إلى مطالع الشتاء و الصيف من النجوم و مشارق الشمس ، فلما رأى أمرهم قد اختلف بات مغموماً فدعا الله عزّ وجلّ أن يفرج عنهم فأتاه آت في منامه فقال له : إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك واجعله على عنقك فإنك تسمع بين يديك تكبيراً و لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ، فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك و محرابك ، و قد رضي الله لك أمر هذا العسكر و هذا المسجد و هذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه و يذل بها من كفر به ، فاستيقظ من منامه و هو جزع ، فتوضأ للصلاة و أخذ يصلي و هو في المسجد و معه أشراف الناس ، فلما أفجر الصبح و صلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه ، فقال لمن حوله : أتسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا ، فعلم أنّ الأمر من عند الله ، فأخذ اللواء فوضعه على عنقه و أقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب ، فانقطع التكبير فركز لواءه و قال : هذا محرابكم ، فاقتدى به سائر مساجد المدينة ، ثم أخذ الناس في بناء الدور و المساكن و المساجد ، و عمرت و شدّ الناس إليها المطايا من كل أفق ، و عظم قدره ، و كان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع و ستمائة ذراع حتى كمل أمرها ، و كان عقبة خير وال خير أمير مستجاب الدعوة[10] .

و رواية الدباغ في المعالم نفسها تقريبا حيث قال : " و كان أول شيء اختط منها فاختلف الناس عليه في القبلة ، و قالوا له : إنّ جميع من بالمغرب يضع قبلته على قبلة هذا الجامع ، فأقاموا أياما ينظرون مطالع الشمس و مغاربها ، فاختلف رأيهم في نصبها ، فاغتمّ لذلك ، و دعا الله عزّ و جلّ فآتاه آت في منامه و قال له : إذا أصبحت فاحمل لواءك على عاتقك فإنّك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد من المؤمنين غيرك ، فالموضع الذي يقطع عنك التكبير فيه فهو مصلاك و هو محراب مسجدك ، و قد رضي الله أمر هذا العسكر و هذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه و يذل بها من كفر إلى آخر الدهر ، فاستيقظ من نومه و هو في المسجد و معه أشراف قريش ، فتوضأ فلما طلع الفجر صلّى ركعتين فإذا بالتكبير بين يديه فقال لمن حوله : أتسمعون شيئا ؟ قالوا : لا ، فعلم أنّ الأمر من قِبل الله عزّ و جلّ ، حيث لم يسمع التكبير غيره ، فأخذ اللواء و جعله على عاتقه و أقبل يتبع التكبير حتى أتى محراب المسجد الآن فانقطع عنه التكبير ، فركز لواءه و قال : هذا محرابكم ، فاقتدى به جميع مساجد المغرب[11] .

و نفس الرواية في رياض النفوس تقريبا مع اختلاف بسيط في بعض ألفاظها و فيها أنّه أتاه آت في منامه فقال له : يا ولي رب العالمين ، يقول لك رب العالمين إذا أصبحت فاحمل لواءك على عاتقك فإنّك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد من المؤمنين غيرك ، فالموضع الذي يقطع عنك التكبير فيه فهو مصلاك و هو محراب مسجدك ، و قد رضي الله أمر هذا العسكر و هذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه و يذل بها من كفر إلى آخر الدهر ...[12]

4- نقد روايات تأسيس القيروان :

4-1- الكرامات : يقول كثير من أهل السنة و الجماعة بجواز وقوع الكرامات ، فالإمام الطحاوي قال : " نؤمن بما جاء في كراماتهم (الأولياء) و صحّ عن الثقات من رواياتهم ، فالمعجزة في اللغة تعم كل خارق و كذلك الكرامة في عرف الأئمة المتقدمين ، و لكنّ كثيرا من المتأخرين يفرّقون في اللفظ بينهما ، فيجعلون المعجزة للنبي و الكرامة للولي ، و جماعهما الأمر الخارق " [13].

و الكرامة في الإصطلاح هي أمر خارق للعادة يظهره الله عزّ و جلّ علي أيدي أوليائه[14]، و أفضل تعريف للولي و أشمله و أسهله ما قاله الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى : " **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوفٌ عَلَيْهِم وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ** " سورة يونس، الآية 62-63 ، قال رحمه الله : " يخبر تعالى أنّ أولياءه هم الذين آمنوا و كانوا يتقون، فكل من كان تقيا كان وليا لله "[15]، و لا يشترط في معرفة الولي أن تُشيَّد له الأضرحة و تُنصَب له القباب و تُشَدُّ إليه الرحال و يطوف الناس حول قبره و يدعونه من دون الله طلبا لجلب منفعة أو دفعا لمضرّة ، و قد انتشرت في العالم الإسلامي الأضرحة و المزارات و صارت لها مراسيم و مناسك خاصة بها ، و كل ذلك بحجة زيارة الولي و التبرك به ، و لا يكاد بلد من بلدان المسلمين يخلو منها مشرقا و مغربا .

و في إثبات الكرامة و جواز وقوعها ثلاثة مذاهب :

الأول : جواز وقوعها على أيدي الصالحين ، و لكن لا تصل إلى الخوارق التي أظهرها الله على أيدي أنبيائه و رسله لإثبات نبوتهم ، و هذا ما أقرّه ابن تيمية .

الثاني : جواز وقوعها بدون حدّ ، فما جاز وقوعه لنبي جاز وقوعه لولي ، بل الخارق للعادة يقع من النبي و الولي و الساحر ، و لا فرق إلا دعوى النبوة من النبي و الصلاح من الولي ، و هذا مذهب الأشاعرة .

الثالث : المنع من وقوع خرق العادة لغير الأنبياء ، و هذا قول المعتزلة و ابن حزم ، و يُذكر عن أبي إسحاق الإسفراييني من الأشاعرة[16] .

4-2 – المغالاة في رواية كرامات عقبة بن نافع :

تُروى عن عقبة كثير بن نافع من الكرامات دون أسانيد صحيحة ، فأغلبها أخبار مرسلة منقطعة جاءت في كتب التاريخ ، و من هذه الأخبار التي هي أشبه بالأسطورة ما نُقل عن عقبة بن نافع أنّه بلغ البحر الأعظم حيث ماسة و أدخل فيه قوائم فرسه ثم جعل يقول : و عليكم السلام ، فقال له أصحابه : على من تسلم يا ولي الله ؟ فقال لهم : إنّ قوم يونس عليه السلام سلموا علي فسلمت عليهم و لولا البحر لأريتكم إياهم[17] .

و عند ابن عذارى أنّ عقبة سار من إيجلي حتى وصل ماسة ، فأدخل فرسه في البحر حتى وصل الماء تلابيبه و قال : السلام عليكم ، فقال له أصحابه : على من تسلّم ؟ قال : على قوم يونس عليه السلام ، ثمّ قال : اللهم إنّك تعلم أنّي لم أطلب إلا ما طلب عبدك و وليّك ذو القرنين ألا يعبد في الأرض غيرك[18].

و هذا الخبر من الأباطيل فسنده منقطع لا يتصل ، و أما متنه فمنكر لا يصح ، فقوم يونس النبي عليه السلام ما سكنوا بلاد المغرب قط ، إنما كان مبعثه عليه السلام إلى أهل نينوى[19] في العراق فكذّبوه و أخرجوه و

عادوه ثمّ تابوا فتاب الله عليهم[20]، و ثمة أمر آخر مهم ينسف هذه الرواية و هو كيف يكون مسكن قوم يونس البحر و هم من الإنس ؟

و يُنقَل عقبة أنّه أقام بمكان اسمه ماء فرس و لم يكن به ماء ، فأصابه و أصحابه عطش شديد أشفوا منه على الموت ، فصلّى ركعتين و دعا الله ، و جعل فرس عقبة يبحث بين يديه في الأرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منه الماء ، فجعل الفرس يمّص ذلك الماء ، فأبصره عقبة فنادى في الناس أن احتفروا ، فحفروا سبعين حسيا ، فشربوا و سقوا ، فسمي لذلك ماء الفرس[21]، و هذه الرواية ضعيفة رواها ابن عبد الحكم مرسلة غير مسندة ، ولهذا لا يمكن التسليم لها .

4-3 – موضع القيروان قبل تأسيسها من طرف عقبة بن نافع : لم تكن منطقة القيروان و ما جاورها مجهولة عند عقبة و أصحابه ، فقد ذكر بعض أهل العلم بالسير و المغازي أنّ عبد الله بن سرح نزل بموضع يسمّى قمونية[22]، و هو موضع مدينة القيروان[23]، و يقول ابن عبد الحكم إنّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح رجع إلى مصر و لم يولِّ عليهم أحدا و لم يتخذ قيروانا[24]، وهذا بعد أن انتصر سنة سبع و عشرين على جرجير في إفريقية في موضع يقال له سبيطلة[25]، و يزداد الأمر وضوحا حول معرفة المسلمين بموضع القيروان قبل عقبة بالروايات التاريخية الخاصة بحملات الفاتح معاوية بن حديج ، و التي تذكر أنّه لما تولى إمارة الجيوش الغازية لإفريقية سنة 45هـ، انتهى إلى قونية و هي موضع مدينة قيروان إفريقية ، ثمّ مضى إلى جبل يقال له القرن يعسكر إلى جانبه[26].

و مما يدل أيضا على أنّ موضع القيروان كان معروفا و معمورا حتى قبل قدوم المسلمين إلى إفريقية ، أنّه كان في موضعه حصن لطيف للروم يسمى قمونية و كان فيه كنيسة و فيها الساريتان الحمروان اللتان هما في المسجد الجامع ، كانت عليهما حنيتان مبنيتان أقامتا إلى أيام زيادة الله بن الأغلب ، فهدمها زيادة الله و حملهما إلى المسجد الجامع ، فجعلهما في المكان الذي هما فيه اليوم[27]، و ممّن روى خبر هذه الكنيسة التي كانت في موضع القيروان بعض الجغرافيين كالبكري و الحميري و صاحب الإستبصار عند حديثهم عن مسجد القيروان ، حيث ذكروا أنّ أول من بناه عقبة ثم هدمه حسان حاشا المحراب و بناه و حمل إليه الساريتين الحمراوين الموشّاتين بصفرة اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب ، و يقولون إنّ صاحب القسطنطينية بدل لهم فيهما قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهبا ، فابتدروا الجامع بهما ، و يذكر كل من رآهما أنّه لم ير في البلاد ما يقترن بهما[28].

و الذي لا شك فيه أنّ هناك مدنا في بلاد المغرب ساهم المسلمون الفاتحون في إضفاء الإسلامي عليها ، ذلك أنّهم لم يعمدوا إلى تهديم المدن التي وجدوها قائمة ، و في المقابل بنيت مدن جديدة على أرض المغرب سواء من طرف المسلمين الفاتحين بعد استقرارهم في المنطقة أو من سكانها المحليين ، و أخذت هذه المدن طابعا إسلاميا محضا بجميع مكوناتها[29].

و يبدو جليا أنّ معاوية بن حديج قد أمر جنده و من هم تحت طاعته بأن يختطوا قيروانا خاصا بهم ، و قد نقل هذا ابن عبد البر في الإستيعاب بهذا النص : " و كان معاوية بن حديج قد اختط القيروان بموضع يدعى

اليوم بالقرن "[30]، و هذا يدفعنا إلى القول بأنّ معاوية بن حديج كان أول فاتح مسلم أدرك أهمية استقرار المسلمين في بلاد المغرب و ضرورة بناء مدينة تكون لهم بمثابة الحصن الذي يحتمون به و يقيمون به في هذه الأرض البعيدة عن مضاربهم .

و إذا اتضح هذا الأمر فإنّ الروايات التاريخية الواردة في شأن عقبة و تأسيسه مدينة القيروان و ما دار فيها من نقاش حول موضع المدينة أولا ثم تلك الكرامة الخاصة بخروج الحيوانات من موضع البناء بعد دعاء عقبة و إمهاله تلك الحيوانات ثلاث ، تصبح مثار شكوك و من الصعب إثباتها ، فابن عبد الحكم يقول إنّ عقبة انصرف إلى القيروان فلم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج بناه قبله ، و نقل الناس من الموضع الذي كان معاوية بن حديج نزله إلى مكان القيروان اليوم ، و ركز رمحه و قال : هذا قيروانكم[31]، و عند ابن عبد البر أنّ عقبة نهض إلى قيروان معاوية فلم يعجبه ، فركب بالناس إلى موضع القيروان اليوم ، و كان واديا كَثِير الأشجار غيضة ، مأوى للوحوش و الحيات ، و اختط القيروان في ذلك الموضع ، فأمر بقطع ذلك و حرقه ، فاختط القيروان، و أمر الناس بالبنيان[32]. و هذا القطع قد يكون سببا رئيسيا في خروج الحيوانات من مكان تواجدها ، فقد أقدم المسلمون على إفساد بيئتها الطبيعية و استعمار الإنسان لها ، و هذا أمر مشاهد كثيرا في زماننا ، فمع توسع العمران و حاجة الناس للبنيان انقرضت أصناف كثيرة من الحيوانات و هجرت مواضعها و قلت أعدادها ، و للحفاظ على هذه الأصناف من الحيوانات شرعت كثير من الحكومات و الدول في سن قوانين صارمة للحد من الإعتداءات البشرية على البيئة و إقامة ما يعرف بالمحميات الطبيعية .

و يمكن أن نضيف أنّ نسبة الكرامة المنسوبة لعقبة بن نافع قد نسبت لغيره ، و هذا ما نجده عند أبي العرب محمد بن تميم في طبقات علماء إفريقية الذي قال إنّ عقبة بن عامر الصحابي قد غزا إفريقية قبل عقبة بن نافع ، فأتى وادي القيروان فبات عليه هو و أصحابه ، حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال : يا أهل الوادي ، اظعنوا فإنا نازلون ، قال ذلك ثلاث مرّات ، فجعلت العقارب و الحيات و غيرهم مما لا يعرفون تخرج ذاهبة و هم قيام ينظرون إليها من حين أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس، وحتى لم يروا منها شيئا ، فنزلوا الوادي عند ذلك[33] .

و مما يزيد في نظرنا أن عقبة لم يكن صاحب فكرة بناء القيروان و إنّما أخذها عن معاوية بن حديج ، أنّ أول مسجد اختط في القيروان مسجد الأنصار سنة 47 هـ قبل ولاية عقبة بن نافع ، و رواية الدباغ في المعالم واضحة إذ يقول : " ذكر مساجد القيروان فأولها في الفضل و الوضع مسجد الأنصار المشهور بالفضل المعلوم بالخير ، اختطه فيما ذكر رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن ثابت الأنصاري[34] صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم و من كان معه من الصحابة و التابعين و ذلك سنة سبع و أربعين قبل أن يخطط القيروان"[35].

و النتيجة التي نخلص إليها بعد استعراض هذه الروايات التاريخية المختلفة أنّ عقبة بن نافع ليس هو أول من فكر في ربناء مدينة للمسلمين في بلاد المغرب ، وإنما سبقه من قبله من الفاتحين غير أنّ ظروف الحرب لم تساعدهم في تجسيد مشروعهم، ولما تولى عقبة قيادة عمليات الفتح كان على دراية تامة بأرض المعركة وما تتطلبه من خطط لإتمام عمليات الفتح، وفي مقدمتها بناء مدينة للمسلمين يستقرون فيها وتكون منطلقهم وقاعدتهم التي

يعودون إليها ويستقرون فيها، فأسس مدينة القيروان التي كانت في موضع مدينة قديمة أو قريبة منها، وما نسب لعقبة من كرامات أغلبها روايات لا سند متصل لها، وبالتالي من الصعب تصديقها.

---

[1] محمد محمد زيتون، **القيروان و دورها في الحضارة الإسلامية**، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى، 1988م، ص 34 .

[2] أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الدباغ(ت 696هـ)، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م، ج1/ ص ص41-42 .

[3] أبو زمعة البلوي : سماه العسكري عبيدا بالتصغير ابن أرقم ، وعند أبي موسى بغير تصغير ولا اسم أب ، ذكره البغويّ و ابن السّكن و غيرهما في الصحابة ، و أخرجوا من طريق ابن لهيعة عن عبيد اللّه بن المغيرة عن أبي قيس مولى بني جم :سمعت أبا زمعة البلوي و كان من أصحاب الشجرة ممّن بايع النبيّ صلى اللّه عليه وسلّم أتى يوما إلى الفسطاط ، فقام في الرحبة و قد بلغه عن عبد اللّه بن عمرو بعض التشديد ، فقال : لا تشدّدوا على الناس، فإنّي سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم يقول : قتل رجل من بني إسرائيل تسعا و تسعين نفسا الحديث بطوله (ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، دراسة و تحقيق و تعليق: عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوّض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1995م، ج7، ص 129، ترجمة رقم 9940 . عز الدين بن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوّض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م، ج6، ص 118، ترجمة رقم 5915 . ابن عبد البر، **الإستيعاب في معرفة الأصحاب**، صححه و خرّج أحاديثه : عادل مرشد، دار الأعلام، عمّان، الطبعة الأولى، 2002م، ص 809، ترجمة رقم 2958) .

[4] الدباغ، مصدر سابق، ج1، ص46 .

[5] أحمد تيمور باشا، الآثار النبوية، مكتبة دار الكتاب العربي، القاهرة، 1370هـ/1951م، ص 84 .

[6] ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب**، تحقيق : كولان و بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983م، ج1، ص ص 19- 20 .

[7] الدباغ، مصدر سابق، ج1، ص ص 43-44.

[8] أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، **رياض النفوس**، تحقيق : بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1994م، ج1، ص ص 11-12

[9] ابن عبد الحكم، **فتوح مصر و المغرب**، تحقيق : عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ج1، ص 265 .

[10] ابن عذارى، مصدر سابق، ج1، ص ص 20-21 .

[11] الدباغ، مصدر سابق، ج1، ص44 .

[12] المالكي، مصدر سابق، ج1، ص12.

[13] ابن أبي العز الحنفي، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق : جماعة من العلماء، خرَّج أحاديثها : محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثامنة، 1984م، ص494.

[14] ، أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، **كرامات أولياء الله**، تحقيق : أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، 1992م، مقدمة المحقق، ص14.

[15] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مؤسسة قرطبة، الجيزة، الطبعة الأولى، 2000م، ج7، ص375.

[16] أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، مصدر سابق، مقدمة المحقق، ص 15 و ما بعدها .

[17] علي الجزنائي، **جنى زهـرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق : عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1991م، ص ص 8- 9 .

[18] ابن عذارى، مصدر سابق، ج1، ص 27 .

[19] نينوى : كورة من كور الموصل من عمل الجزيرة، و هي مقابلة للموصل بينهما دجلة (الحميري، مصدر سابق، ص 585).

[20] المطهر بن طاهر المقدسي، **كتاب البـدء و التاريخ**، مكتبـة الثقافة الدينيـة، القـاهرة، ج3، ص 110 . ابن كثير، البداية و النهاية، ج2، ص 17 .

[21] ابن عبد الحكم، ج1، ص ص 263-264.

[22] قمونية : مدينة بإفريقية كانت موضع القيروان قبل أن تمصر القيروان (ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج4، ص399).

[23] المالكي، مصدر سابق، ج1، ص20 .

[24] ابن عبد الحكم، فتوح مصر و المغرب، 246/1.

[25] ينظر حول هذه المعركة : ابن عذارى، مصدر سابق، ج1، ص 9 و ما بعدها .

[26] ابن عبد الحكم، فتوح مصر و المغرب، 261/1 .

[27] رياض النفوس، ج1، ص32 .

[28] أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر إفريقية و المغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 22 ، و الرواية نفسها عند الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : د/ إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م، ص 487 ، ومجهول، الاستبصار في عجائب الأسفار، نشر و تعليق : سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص 114 .

[29] البشير بوقاعدة، **خراب المدن بالمغرب الأوسط و الأدنى بين 296هـ-909م/547هـ-1152م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المشرق و المغرب الإسلامي، إشراف : د/ مبارك بوطارن، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، 2012-2013، ص46 .

[30] ابن عبد البر، **الإستيعاب في معرفة الأصحاب**، صححه و خرّج أحاديثه : عادل مرشد، دار الأعلام، عمّان، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م، ص 563، ترجمة رقم 1905.

[31] ابن عبد الحكم، ج1، ص ص 264-265 .

[32] ابن عبد البر، مصدر سابق، ص 563.

[33] أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم، كتاب طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص 9.

[34] رويفع بن تابث بن السكن بن عدّي بن حارثة : نزل مصر ، ولاّه معاوية على طرابلس سنة ست و أربعين ، فغزا إفريقية ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم و عنه بشر بن عبد الله الحضرمي و حنش الصنعاني و آخرون ، وقال ابن البرقي : توفي ببرقة و هو أمير عليها ، و قال ابن يونس : مات سنة ست و خمسين و هو أمير عليها من قبل مسلمة بن خالد (الإصابة، ج2، ص416-417 ، ترجمة رقم 2705).

[35] الدباغ، مصدر سابق، ج1، ص58 .